المحاضرة الخامسة عشر

الفصل الأول: الفروق الفردية

يهتم علم النفس بدراسة الفروق بين الأفراد. وعلى الرغم من أن الفروق الفردية في السلوك، توجد بشكل منتظم في كل التجارب النفسية، وينظر إليها فيها على أنها مصادر للخطأ، ينبغي أن يتم ضبطها أو على ألأقل تحييد أثرها على المتغير الناتج، بغية الوصول إلى تعميمات تنطق على جميع الأفراد، فإن هذه الفروق تصبح في حد ذاتها هدفا وموضعا للدراسة في ميدان على النفس الفارق، أو ما يعرف بسيكولوجية الفروق الفردية.
ولا يهتم علم النفس الفارق بدارسة هذه الفروق، لمجرد الرغبة في فهم الإنسان فحسب، وإنما لأن المجتمع المعاصر قد بلغ درجة عالية من التعقيد، وتنوعت فيه التخصصات والأدوار التي ينبغي أن يقوم بها أفراده. ومن هنا نشأت مشكلة اكتشاف الأفراد، الذي يلائمون الأدوار والاحتياجات المختلفة التي يتطلبها المجتمع. وفي هذا ما يحقق الكفاية للمجتمع، والتوافق للفرد.
إننا نعرف من دراستنا لظاهرات النمو النفسي والدافعية والتعليم والإدراك والاتجاهات، وغير ذلك من الظاهرات النفسية، أن كل شخص يختلف عن الآخرين، لأن له خصائصه المميزة، ولأنه يمر بخبرات في المنزل، والمدارسة والمجتمع، لها خصائصها ومميزاتها، ومن ثم يكتسب عادات واتجاهات ومفاهيم تميزه عن غيره من الناس.
وعلم النفس الفارق يهتم بالإنسان كشخصية متفردة، تعتبر نتاجاً لهذه المؤثرات وكثير غيرها، ويهدف إلى معرفة: مال الذي يختلف فيه الأفراد، ومدى هذه الفروق، وكيف يمكن قياسها، فعلم النفس الفارق، باعتباره أحد الميادين الرئيسية لعلم النفس المعاصر، يتهم بالدراسة العلمية الموضوعية للفروق بين الأفراد، كما أنه يهتم بدراسة الفروق القائمة بين الجماعات والشعوب أيضاً.
وقد فطن الإنسان منذ بداية وعيه بوجوده إلى الفروق القائمة بين الأفراد، واهتم في مراحل تاريخية المختلفة، بملاحظة هذه الفروق ووصفها، وقد حاول في مراحل حياته البدائية تفسير هذه الاختلافات على أساس معارفه المحدودة، أو بردها إلى عوامل وأسباب خرافية، ومهما يكن فقد تقبل وجودها كحقيقة واقعة وتقدم لنا عناصر التراث الإنساني نماذج لشخصيات فردية متميزة، صورة في القصص أو اللوحات الفنية، كما نجد في كتابات الفلاسفة القدماء أمثال أفلاطون وأرسطو، إدراكا لمفاهيم الفروق الفردية، ودعوة إلى ضرورة مراعاتها في التربية، وفي توزيع الأدوار في المجتمع كما أن كثيراً من المفكرين العرب فطنوا إلى معنى الفروق الفردية وأهميتها في بناء المجتمع وقسموا الناس بالنسبة لأية صفة من الصفات إلى ثلاث مستويات: الأعلى، والأوسط، والأدنى.
إلا أن هذه الملاحظات لم تصبح علما له أصوله ومناهجه في الدراسة والتحليل، إلا حينما خضعت هذه الفروق للقياس الدقيق، ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر.

عمومية الفروق الفردية:

ولا تقتصر ظاهرة الفروقُ الفردية على الجنس البشري، بل نستطيع أن نتبينها في الكائنات الحية، فطالما وجدت الحياة، وجدت الفروق الفردية، وإذا تتبعنا السلسلة الحيوانية، ابتداء من الكائنات البسيطة، وسرنا معها في ترقيها حتى نصل إلى الإنسان، لوجدنا أن الفروق الفردية ظاهرة عامة في جميع الكائنات الحية، صحيح أن لكل نوع من الكائنات الحية خصائصه المميزة، التي يشترك فيها أفراد النوع، بل لا بد من توافرها في كل فرد منه، ولكن في داخل هذه الحدود، لا نجد فردين يستجيبان بنفس الطريقة بالضبط للمثيرات التي يتعرضان لها. فلكل فرد من أفراد النوع الواحد، أساليبه الخاصة في التكيف مع البيئة المحيطة وظروفها المتغيرة.
وتكشف ملاحظاتنا المباشرة لسلوك هذه الكائنات الحية عن الفروق بين أفرادها. فحينما نلاحظ سربا من الطيور أو قطيعا من الحيوانات، نجد أن بعض أفرادها يقومون بدور قيادي في تنقلاتها

وأنشطتها المختلفة. بل نجد في بعض الأفراد، كما أن التجارب التي أجريت على حيوانات مختلفة مثل الفئران والقطط والكلاب والقرود وغيرها، أثبتت وجود فروق في قدراتها على حل المشكلات والتعلم ومستوى النشاط والدوافع، كالجنس والجوع والعطش، وأحوالهم الانفعالية كالخوف والعدوان وغيرها، فإذا ما انتقلنا إلى الإنسان وجدنا الفروق الفردية في أبرز صورها ومظاهرها.
فما هي النواحي أو الصفات التي يختلف فيها أفراد الجنس البشري